لا إله إلا الله

ذلكم الله ربكم

إعداد
أبي عبد العزيز منير الجزائري

دار الفرقان للنشر والتوزيع

عِقَابٌ إِلَّا مُبْتَدِيًا مِنْهُ مُنْتَهِيًا إِلَيْهِ، وَذَلِكَ مُوجِبُهُ وَمُقْتَضَاه»[٦].

قَالَ الله ﷻ: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [سُورَةُ يُونُسَ].

«فَمَا شَاءَ كَانَ كَمَا شَاءَ فِي الوَقْتِ الَّذِي يَشَاء عَلَى الوَجْهِ الَّذِي يَشَاء مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَان وَلَا تَقَدُّمٍ وَلَا تَأَخُّرٍ، وَأَمْرُهُ وَسُلْطَانُهُ نَافِذٌ فِي السَّمَاوَاتِ وَأَقْطَارِهَا، وَفِي الأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا وَمَا تَحْتَهَا، وَفِي البِحَارِ وَالجَوِّ وَفِي سَائِرِ أَجْزَاءِ العَالَمِ وَذَرَّاتِهِ يُقَلِّبُهَا وَيُصَرِّفُهَا وَيُحْدِثُ فِيهَا مَا يَشَاء، وَقَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا، وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا، وَوَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَحِكْمَةً، وَوَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَات فَلَا تَخْتَلِفُ عَلَيْهِ وَلَا تَشْتَبِهُ عَلَيْه؛ بَلْ يَسْمَعُ ضَجِيجَهَا بِاخْتِلَافِ لُغَاتِهَا عَلَى كَثْرَةِ حَاجَاتِهَا، لَا يَشْغُلُهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْع، وَلَا تُغْلِطُهُ كَثْرَةُ المَسَائِلِ وَلَا يَتَبَرَّمُ بِإِلْحَاحِ ذَوِي الحَاجَات، وَأَحَاطَ بَصَرُهُ بِجَمِيعِ المَرْئِيَّات: فَيَرَى دَبِيبَ النَّمْلَةِ السَّوْدَاء عَلَى الصَّخْرَةِ الصَّمَّاء فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاء، فَالغَيْبُ عِنْدَهُ شَهَادَة، وَالسِّرُّ عِنْدَهُ عَلَانِيَة، يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى مِنَ السِّرِّ، فَالسِّرُّ مَا انْطَوَى عَلَيْهِ ضَمِيرُ العَبْدِ وَخَطَرَ بِقَلْبِهِ وَلَمْ تَتَحَرَّكْ بِهِ شَفَتَاه، وَأَخْفَى مِنْه مَا لَمْ يَخْطُرْ بَعْدُ؛ فَيَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَخْطُرُ بِقَلْبِهِ كَذَا وَكَذَا فِي وَقْتِ كَذَا وَكَذَا، لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْر، وَلَهُ المُلْكُ وَالحَمْد، وَلَهُ الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَلَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ الحَسَن، لَهُ المُلْكُ كُلُّهُ، وَلَهُ الحَمْدُ كُلُّه، وَبِيَدِهِ الخَيْرُ كُلُّه، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الأَمْرُ كُلُّه، شَمَلَتْ قُدْرَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَوَسِعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَوَسِعَتْ نِعْمَتُهُ إِلَى كُلِّ حَيٍّ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ]، يَغْفِرُ ذَنْبًا وَيُفَرِّجُ هَمًّا وَيَكْشِفُ كَرْبًا وَيَجْبُرُ كَسِيرًا وَيُغْنِي فَقِيرًا وَيُعَلِّمُ جَاهِلًا وَيَهْدِي ضَالًّا وَيُرْشِدُ حَيْرَانًا وَيُغِيثُ لَهْفَانًا وَيَفُكُّ عَانِيًا وَيُشْبِعُ جَائِعًا وَيَكْسُو عَارِيًا وَيَشْفِي مَرِيضًا وَيُعَافِي مُبْتَلًى وَيَقْبَلُ تَائِبًا وَيَجْزِي مُحْسِنًا وَيَنْصُرُ مَظْلُومًا وَيَقْصِمُ جَبَّارًا وَيُقِيلُ عَثْرَةً وَيَسْتُرُ عَوْرَةً وَيُؤَمِّنُ رَوْعَةً وَيَرْفَعُ أَقْوَامًا وَيَضَعُ آخَرِين ..»[٧].

[٦] «تَيْسِيرُ العَزِيزِ الحَمِيد» (ص١٤).
[٧] «الوَابِلُ الصَّيِّب» (ص١٢٧).

عَنْ أَبِي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً، فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَه»[٨].

وَرَحِمَ اللهُ مَنْ قَالَ: «خَرَجَ أَهْلُ الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَذُوقُوا أَطْيَبَ شَيْءٍ فِيهَا، قِيلَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: **مَعْرِفَةُ اللهِ تَعَالَى**»[٩].

فَهُوَ سُبْحَانَهُ «لَا يَلْقَى وَصَايَاهُ إِلَّا الصَّابِرُون، وَلَا يَفُوزُ بِعَطَايَاهُ إِلَّا الشَّاكِرُون، وَلَا يَهْلَكُ عَلَيْهِ إِلَّا الهَالِكُون، وَلَا يَشْقَى بِعَذَابِهِ إِلَّا المُتَمَرِّدُون، ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [سُورَةُ فَاطِرٍ].

.. وَبُشْرَاكَ أَيُّهَا التَّائِبُ بِمَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُور، مَنْ عَلِمَ أَنَّ الرَّبَّ شَكُورٌ تَنَوَّعَ فِي مُعَامَلَتِهِ، وَمَنْ عَرَفَ أَنَّهُ وَاسِعُ المَغْفِرَةِ تَعَلَّقَ بِأَذْيَالِ مَغْفِرَتِه، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَتْ غَضَبَهُ لَمْ يَيْأَسْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾ [سُورَةُ فَاطِرٍ].

مَنْ تَعَلَّقَ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ أَخَذَتْهُ بِيَدِهِ حَتَّى تُدْخِلَهُ عَلَيْهِ، وَمَنْ سَارَ

[٨] رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٧٧).
[٩] «سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ» (٥/ ٣٦٣).

إِلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ الحُسْنَى وَصَلَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَحَبَّهُ أَحَبَّ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَكَانَتْ آثَرَ شَيْءٍ لَدَيْهِ حَيَاةُ القُلُوبِ فِي مَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ، وَكَمَالُ الجَوَارِحِ فِي التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ وَالقِيَامِ بِخِدْمَتِهِ، وَالأَلْسِنَةِ بِذِكْرِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِأَوْصَافِ مِدْحَتِهِ»[١٠].

فَبَعْدَ هَذَا البَيَانِ المُخْتَصَر.. الَّذِي يَلِينُ لَهُ القَلْبُ وَلَوْ كَانَ فِي القَسْوَةِ كَالحَجَر، هَلْ تَتَّجِهُ القُلُوب لِغَيْرِ عَلَّامِ الغُيُوب؟

وَهَلْ يُؤَمَّلُ نَيْلُ الأَرْزَاق مِنْ غَيْرِ الوَاحِدِ الخَلَّاق؟ وَهِبَةُ الذُّرِّيَّة مِنْ غَيْرِ رَبِّ البَرِيَّة؟

إِنَّ أَقْوَامًا جَهِلُوا العِلْمَ بِالله وَتَعْظِيمَهُ سُبْحَانَهُ، فَتَوَجَّهُوا بِالدَّعَوَات وَالقُرُبَات إِلَى غَيْرِ رَبِّ البَرِيَّات؛ بَلْ إِلَى مَخْلُوقَات.

فَعَظَّمُوا الأَشْجَار وَالأَحْجَار، وَتَوَجَّهُوا إِلَى قُبُورِ الصَّالِحِين، كَيْفَ لَوْ رَأَيْتَهُمْ وَقَدْ وَقَفُوا عَلَى أَعْتَابِهَا خَاشِعِين وَجِلِين بَاكِين مُسْتَغِيثِين بِمَنْ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [سُورَةُ فَاطِرٍ].

إِنَّ العِلْمَ بِالله لَيْسَ كَلِمَاتٍ تُرَدَّد وَعِبَارَاتٍ تُكَرَّر؛ وَلَكِنَّهُ إِيمَانٌ صَادِق، وَيَقِينٌ رَاسِخ، يُثْمِرُ العَمَلَ الصَّالَح.

فَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ: «إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللهِ أَنَا»[١١].

«وَلَيْسَتْ حَاجَةُ الأَرْوَاحِ قَطُّ إِلَى شَيْءٍ أَعْظَم مِنْهَا إِلَى مَعْرِفَةِ بَارِيهَا وَفَاطِرِهَا وَمَحَبَّتِهِ وَذِكْرِهِ وَالابْتِهَاجِ بِهِ، وَطَلَبِ الوَسِيلَةِ إِلَيْهِ وَالزُّلْفَى عِنْدَهُ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى هَذَا إِلَّا بِمَعْرِفَةِ أَوْصَافِهِ وَأَسْمَائِهِ، فَكُلَّمَا كَانَ العَبْدُ بِهَا أَعْلَم كَانَ بِالله أَعْرَف وَلَهُ أَطْلَب وَإِلَيْهِ أَقْرَب»[١٢].

[١٠] «عُدَّةُ الصَّابِرِين» (ص٣٣٣).
[١١] رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٢٠).
[١٢] «الكَافِيَةُ الشَّافِيَة» (١/ ٣).

إِخْوَانِي فِي الله: «مِنْ أَعْجَبِ الأَشْيَاءِ أَنْ تَعْرِفَهُ (ﷻ) ثُمَّ لَا تُحِبَّهُ، وَأَنْ تَسْمَعَ دَاعِيه ثُمَّ تَتَأَخَّرَ عَنْ الإِجَابَة، وَأَنْ تَعْرِفَ قَدْرَ الرِّبْحِ فِي مُعَامَلَتِهِ ثُمَّ تَعْمَلَ لِغَيْرِه، وَأَنْ تَعْرِفَ قَدْرَ غَضَبِهِ ثُمَّ تَتَعَرَّضَ لَهُ، وَأَنْ تَذُوقَ أَلَمَ الوَحْشَةِ فِي مَعْصِيَتِهِ ثُمَّ لَا تَطْلُبَ الأُنْسَ بِطَاعَتِهِ، وَأَنْ تَذُوقَ عَصَرَةَ القَلْبِ عِنْدَ الخَوْضِ فِي غَيْرِ حَدِيثِهِ وَالحَدِيثِ عَنْهُ ثُمَّ لَا تَشْتَاقَ إِلَى انْشِرَاحِ الصَّدْرِ بِذِكْرِهِ وَمُنَاجَاتِهِ، وَأَنْ تَذُوقَ العَذَابَ عِنْدَ تَعَلُّقِ القَلْبِ بِغَيْرِهِ وَلَا تَهْرَبَ مِنْهُ إِلَى نَعِيمِ الإِقْبَالِ عَلَيْهِ وَالإِنَابَةِ إِلَيْهِ.

وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا عِلْمُكَ أَنَّكَ لَابُدَّ لَكَ مِنْهُ وَأَنَّكَ أَحْوَجُ شَيْءٍ إِلَيْهِ وَأَنْتَ عَنْهُ مُعْرِضٌ وَفِيمَا يُبْعِدُكَ عَنْهُ رَاغِب»[١٣].

إِخْوَانِي فِي الله: «مَنْ أَقْبَلَ عَلَى الله تَلَقَّاهُ مِنْ بَعِيد، وَمَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِأَجْلِهِ أَعْطَاهُ مِنْ فَضْلِهِ المَزِيد، وَمَنْ أَنْزَلَ بِهِ حَوَائِجَهُ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ وَأَعْطَاه كُلَّ مَا يَشْتَهِي وَيُرِيد، وَمَنْ اتَّقَاهُ جَعَلَ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِب وَهُوَ الوَلِيُّ الحَمِيد»[١٤].

وَصَلَّى الله وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين.

مُحِبُّكُم فِي الله
أبو عبد العزيز منير الجزائري
abou-abdelaziz@hotmail.fr

[١٣] «الفَوَائِد» (ص ٤٧).
[١٤] «مَجْمُوعُ خُطَبِ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَن بَنِ نَاصِر السَّعْدِي» (ص٢٧).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ المُكَلَّفِينَ لِيَعْبُدُوه، وَأَدَرَّ عَلَيْهِمْ الأَرْزَاقَ لِيَشْكُرُوه، وَوَضَّحَ لَهُمْ الأَدِلَّةَ وَالبَرَاهِينَ لِيَعْرِفُوه، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله الَّذِي يَتَعَيَّنُ عَلَيْنَا أَنْ لَا نَدْعُوَ غَيْرَهُ وَلَا نَخَافُهُ وَلَا نَرْجُوه، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي فَاقَ الرُّسُلَ مِنْ جميعِ الوُجُوه، اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ جميعِ الَّذِينَ اتَّبَعُوه.

أَمَّا بَعْدُ:

إِخْوَانِي فِي الله ... إِنِّي أُحِبُّكُمْ فِي الله:

إِنَّ العِلْمَ بِالله أَشْرَفُ العُلُوم، وَأَفْضَلُ الفُهُوم، وَهُوَ أَجَلُّهَا عَلَى الإِطْلَاق، وَأَنْفَعُهَا بِاتِّفَاق، وَهُوَ عِلْمٌ مُبَارَك، كَثِيرُ العَوَائِد، غَزِيرُ الفَوَائِد، وَمُتَنَوِّعُ الثِّمَارِ وَالآثَار.

يُورِثُ تَعْظِيمَ عَلَّامِ الغُيُوب فِي القُلُوب، فَتُثْمِرُ شَجَرَةُ الإِيمَانِ اسْتِسْلَامًا وَإِسْلَامًا، إِيقَانًا وَإِحْسَانًا.

فَالاشْتِغَالُ بِطَلَبِهِ وَالعَمَلُ بِمُقْتَضَاه، إِشْتِغَالٌ بِأَعْلَى المَطَالِب، وَحُصُولُهُ وَتَحْصِيلُهُ لِلْعَبْدِ مِنْ أَشْرَفِ المَوَاهِب، لِأَنَّ مَعْرِفَةَ الله تَعَالَى تَدْعُو إِلَى مَحَبَّتِهِ وَخَشْيَتِهِ، وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ، وَإِخْلَاصِ العَمَلِ لَه، وَهَذَا عَيْنُ سَعَادَةِ العَبْد؛ وَلَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ الله، إِلَّا بِمَعْرِفَةِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَالتَّفَقُّهِ فِي فَهْمِ مَعَانِيهَا، وَتَدَبُّرِ آيَاتِهِ الكَوْنِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ].

قَالَ الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٦﴾﴾ [سُورَةُ الزُّمَرِ].

«مَن الَّذِي أَوْجَدَنَا مِنَ العَدَم؟ وَغَمَرَنَا بِسَوَابِغِ النِّعَم؟ مَنْ الَّذِي

صَرَفَ عَنَّا المَكَارِهَ وَالمَضَارَّ وَالنِّقَم؟

مَن الَّذِي أَعْطَانَا العُقُولَ وَالأَسْمَاعَ وَالأَبْصَار؟ مَنْ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَار؟

مَنْ الَّذِي فَلَقَ الحَبَّ عَنْ الزُّرُوعِ وَعَنْ الأَشْجَارِ وَعَنْ النَّوَى؟ مَنْ الَّذِي أَحْيَا الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْهَا مِنْ غَيْثِ السَّمَاء؟ مَنْ الَّذِي يُصَوِّرُنَا فِي الأَرْحَام كَيْفَ يَشَاء؟

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ].

مَنْ الَّذِي أَمْسَكَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ عَنْ الزَّوَال؟ مَنْ الَّذِي أَحْكَمَ خَلْقَهُمَا وَأَحْسَنَ نِظَامَهُمَا فَلَا يُرَى فِيهِمَا خَلَلٌ وَلَا إِخْلَال؟

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾﴾ [سُورَةُ فاطر].

مَنْ الَّذِي فَجَّرَ الأَرْضَ بِالأَنْهَارِ وَالعُيُون، وَأَخْرَجَ الثِّمَارَ اللَّذِيذَةَ وَالفَوَاكِهَ الشَّهِيَّةَ مِنْ يَابِسِ الغُصُون؟ أَمَا ذَلِكَ إِبْدَاعُ مَنْ يَقُولُ لِلْشَّيْءِ: كُنْ فَيَكُون؟

مَنْ الَّذِي خَلَقَ المَخْلُوقَاتِ فَعَدَّلَهَا وَأَحْسَنَهَا وَسَوَّى، وَقَدَّرَ أَقْدَارًا وَإِلَيْهَا وَجَّهَ أَهْلَهَا وَهَدَى؟

مَنْ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَبَنَاهَا؟ ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴿٣٣﴾﴾ [سُورَةُ النَّازِعَاتِ]»[١].

قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [سُورَةُ فَاطِرٍ].

فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: «فَعَّالٌ لِمَا يُرِيد، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَمَعَ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَمُقِيمٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، آمِرٌ نَاه، مُتَكَلِّمٌ بِكَلِمَاتِهِ

[١] «الفَوَاكِهُ الشَّهِيَّةُ فِي الخُطَبِ المَنْبَرِيَّةِ» (ص٢٠٧) بِتَصَرُّفٍ يَسِير.

الدِّينِيَّةِ وَالكَوْنِيَّة، أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَجْمَلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، أَرْحَمُ الرَّاحِمِين، وَأَقْدَرُ القَادِرِين، وَأَحْكَمُ الحَاكِمِين»[٢] وَأَجْوَدُ الأَجْوَدِين، وَأَكْرَمُ الأَكْرَمِين.

قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [سُورَةُ الأَنْعَامِ].

«وَهُوَ (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) يُعْطِي عَبْدَهُ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلَهُ وَفَوْقَ مَا يُؤَمِّلُهُ، يَشْكُرُ عَلَى القَلِيلِ مِنَ العَمَلِ وَيُنَمِّيه، وَيَغْفِرُ الكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ وَيَمْحُوه: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴿٢٩﴾﴾ [سُورَةُ الرَّحْمَنِ] لَا يَشْغُلُهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ، وَلَا تُغْلِطُهُ كَثْرَةُ المَسَائِل، وَلَا يَتَبَرَّمُ بِإِلْحَاحِ المُلِحِّين؛ بَلْ يُحِبُّ المُلِحِّينَ فِي الدُّعَاء، وَيُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ وَيَغْضَبُ إِذَا لَمْ يُسْأَل، فَيَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ حَيْثُ لَا يَسْتَحْيِي العَبْدُ مِنْهُ، وَيَسْتُرُهُ حَيْثُ لَا يَسْتُرُ نَفْسَهُ، وَيَرْحَمُهُ حَيْثُ لَا يَرْحَمُ نَفْسَهُ، دَعَاهُ بِنِعْمَتِهِ وَإِحْسَانِه، وَنَادَاهُ إِلَى كَرَامَتِهِ وَرِضْوَانِهِ..

وَكَيْفَ لَا تُحِبُّ القُلُوبُ مَنْ لَا يَأْتِي بِالحَسَنَاتِ إِلَّا هُو؟ وَلَا يَذْهَبُ بِالسَّيِّئَاتِ إِلَّا هُو؟! وَلَا يُجِيبُ الدَّعَوَات، وَيُقِيلُ العَثَرَات، وَيَغْفِرُ الخَطِيئَات، وَيَسْتُرُ العَوْرَات، وَيَكْشِفُ الكُرُبَات، وَيُغِيثُ اللَّهَفَات، وَيُنِيلُ الطَّلَبَات سِوَاه؟!

فَهُوَ أَحَقُّ مَنْ ذُكِر، وَأَحَقُّ مَنْ شُكِر، وَأَحَقُّ مَنْ حُمِد، وَأَحَقُّ مَنْ عُبِد، وَأَنْصَرُ مَنْ ابْتُغِي، وَأَرْأَفُ مَنْ مَلَك، وَأَجْوَدُ مَنْ سُئِل، وَأَوْسَعُ مَنْ أَعْطَى، وَأَرْحَمُ مَنْ اسْتُرْحِم، وَأَكْرَمُ مَنْ قُصِد، وَأَعَزُّ مَنْ الْتُجِئَ إِلَيْهِ وَأَكْفَى مَنْ تُوُكِّلَ عَلَيْه، أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ مِنَ الوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا، وَأَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عِبَادِهِ التَّائِبِينَ مِنَ الفَاقِدِ لِرَاحِلَتِهِ، الَّتِي عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فِي الأَرْضِ المُهْلِكَةِ إِذَا يَئِسَ مِنَ الحَيَاةِ فَوَجَدَهَا، وَهُوَ المَلِكُ فَلَا شَرِيكَ لَه وَالفَرْدُ فَلَا نِدَّ لَه، ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [سُورَةُ القَصَصِ :٨٨]، لَنْ يُطَاعَ إِلَّا بِإِذْنِه، وَلَنْ يُعْصَى إِلَّا بِعِلْمِه، يُطَاعُ فَيَشْكُر.. وَيُعْصَى فَيَغْفِر.. فَهُوَ أَقْرَبُ شَهِيد، وَأَدْنَى حَفِيظ، وَأَوْفَى

[٢] «الفَوَائِدُ» (ص١٨٠).

بِالعَهْد، وَأَعْدَلُ قَائِمٍ بِالقِسْط، حَالَ دُونَ النُّفُوس، وَأَخَذَ بِالنَّوَاصِي، وَكَتَبَ الآثَار، وَنَسَخَ الآجَال، فَالقُلُوبُ لَهُ مُفْضِيَة، وَالسِّرُّ عِنْدَهُ عَلَانِيَّة، وَالغَيْبُ لَدَيْهِ مَكْشُوف، وَكُلُّ أَحَدٍ إِلَيْهِ مَلْهُوف، وَعَنَتْ الوُجُوهُ لِنُورِ وَجْهِهِ، وَعَجَزَتْ القُلُوبُ عَنْ إِدْرَاكِ كُنْهِه، وَدَلَّتْ الفِطَرُ وَالأَدِلَّةُ كُلُّهَا عَلَى امْتِنَاعِ مِثْلِهِ وَشِبْهِهِ، أَشْرَقَتْ لِنُورِ وَجْهِهِ الظُّلُمَات، وَاسْتَنَارَتْ لَهُ الأَرْضُ وَالسَّمَوَات، وَصَلُحَتْ عَلَيْهِ جَمِيعُ المَخْلُوقَات، لَا يَنَام وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَام، يَخْفَضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُه، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَار، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْل، حِجَابُهُ النُّور لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ..»[٣].

قَالَ الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾﴾ [سُورَةُ الأَنْعَامِ].

«لَا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا شَبِيهَ لَه، وَلَا نَظِيرَ لَه، وَلَا وَلَدَ لَه، وَلَا وَالِدَ لَه، وَلَا صَاحِبَةَ لَه، وَلَا شَرِيكَ لَه، لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِدَاء، وَلَا لِآخِرِيَّتِهِ انْقِضَاء؛ لَا يَبْلُغُ كُنْهَ صِفَتِهِ الوَاصِفُون، وَلَا يُحِيطُ بِأَمْرِهِ المُتَفَكِّرُون»[٤] ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [سُورَةُ الشُّورَى]، وَهُوَ سُبْحَانَهُ اللَّطِيفُ الخَبِير، العَلِيمُ القَدِير، السَّمِيعُ البَصِير، العَلِيُّ الكَبِير، الرَّحْمَنُ الرَّحِيم، القَوِيُّ العَظِيم، العَزِيزُ الحَكِيم، الغَفُورُ الحَلِيم، الحَمِيدُ الكَرِيم، العَفُوُّ التَّوَاب، الغَنِيُّ الوَهَّاب: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ [سُورَةُ الحَشْرِ].

«رَحْمَنُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَحِيمُهُمَا الَّذِي كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، الَّذِي غَلَبَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ كَمَا كَتَبَ ذَلِكَ عِنْدَهُ عَلَى عَرْشِهِ فِي الْكِتَابِ الْمُبِينِ... الْمُتَصَرِّفُ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْإِعْزَازِ وَالْإِذْلَالِ، وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ وَالْهِدَايَةِ وَالْإِضْلَالِ... الْقُدُّوسُ الَّذِي اتَّصَفَ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَتَقَدَّسَ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَمُحَالٍ،

[٣] «الفَوَائِدُ» (ص١٦٦).

[٤] «رِسَالَةُ الإِمَامِ ابْنِ أَبِي زَيْدٍ القَيْرَوَانِي» (ص٩)

وَتَعَالَى عَنِ الْأَشْبَاهِ وَالْأَمْثَالِ... السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَا كَسَمْعِ وَلَا بَصَرِ أَحَدٍ مِنَ الْوَرَى، الْقَائِلُ لِمُوسَى وَهَارُونَ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [سُورَةُ طه]... الْغَفُورُ الشَّكُورُ الَّذِي يَغْفِرُ الْكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ، وَيَقْبَلُ الْيَسِيرَ مِنْ صَالِحِ الْعَمَلِ، فَيُضَاعِفُهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَيُثِيبُ عَلَيْهِ الثَّوَابَ الْجَلَلَ»[٥].

قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [سُورَةُ يُونُسَ].

إِنَّهُ الله جَلَّ جَلَالُهُ: «مَا ذُكِرَ فِي قَلِيلٍ إِلَّا كَثَّرَه، وَلَا عِنْدَ خَوْفٍ إِلَّا أَزَالَه، وَلَا عِنْدَ كَرْبٍ إِلَّا كَشَفَه، وَلَا عِنْدَ هَمٍّ وَغَمٍّ إِلَّا فَرَّجَه، وَلَا عِنْدَ ضِيقٍ إِلَّا وَسَّعَه، وَلَا تَعَلَّقَ بِهِ ضَعِيفٌ إِلَّا أَفَادَهُ القُوَّة، وَلَا ذَلِيلٌ إِلَّا أَنَالَهُ العِزّ، وَلَا فَقِيرٌ إِلَّا أَصَارَهُ غَنِيًّا، وَلَا مُسْتَوْحِشٌ إِلَّا آنَسَه، وَلَا مَغْلُوبٌ إِلَّا أَيَّدَه وَنَصَرَه، وَلَا مُضْطَرٌّ إِلَّا كَشَفَ ضُرَّه، وَلَا شَرِيدٌ إِلَّا آوَاه.

فَهُوَ الاسْمُ الَّذِي تُكْشَفُ بِهِ الكُرُبَات، وَتُسْتَنْزَلُ بِهِ البَرَكَات، وَتُجَابُ بِهِ الدَّعَوَات، وَتُقَالُ بِهِ العَثَرَات، وَتُسْتَدْفَعُ بِهِ السَّيِّئَات، وَتُسْتَجْلَبُ بِهِ الحَسَنَات.

وَهُوَ الاسْمُ الَّذِي قَامَتْ بِهِ السَّمَوَات وَالأَرْض، وَبِهِ أُنْزِلَتْ الكُتُب، وَبِهِ أُرْسِلَتْ الرُّسُل، وَبِهِ شُرِعَتْ الشَّرَائِع، وَبِهِ قَامَتْ الحُدُود، وَبِهِ شُرِعَ الجِهَاد، وَبِهِ انْقَسَمَتْ الخَلِيقَةُ إِلَى السُّعَدَاء وَالأَشْقِيَاء، وَبِهِ حَقَّتْ الحَاقَّة، وَوَقَعَتْ الوَاقِعَة، وَبِهِ وُضِعَتْ المَوَازِين القِسْط وَنُصِبَ الصِّرَاط، وَقَامَ سُوقُ الجَنَّةِ وَالنَّار، وَبِهِ عُبِدَ رَبُّ العَالَمِين وَحُمِدَ، وَبِحَقِّهِ بُعِثَتْ الرُّسُل، وَعَنْهُ السُّؤَالُ فِي القَبْرِ وَيَوْم البَعْثِ وَالنُّشُور، وَبِهِ الخِصَامُ وَإِلَيْهِ المُحَاكَمَة، وَفِيه المُوَالَاة وَالمُعَادَاة، وَبِهِ سَعِدَ مَنْ عَرَفَهُ وَقَامَ بِحَقِّهِ، وَبِهِ شَقِيَ مَنْ جَهِلَهُ وَتَرَكَ حَقَّهُ، فَهُوَ سِرُّ الخَلْقِ وَالأَمْرِ، وَبِهِ قَامَا وَإِلَيْهِ انْتَهَيَا.

فَالخَلْقُ بِهِ وَإِلَيْهِ، وَلِأَجْلِهِ، فَمَا وُجِدَ خَلْقٌ وَلَا أَمْرٌ، وَلَا ثَوَابٌ وَلَا

[٥] «مَعَارِجُ القَبُول» (ص٩).